

المرغبة الأخيرة

انزل من الطائرة لانه لم ينفذ شروط المقدم مما قد يحمل بقية المسافرين على التهور ، وكيف انه اقتيد بتهمة الاخلال بالامن الى مركز الشرطة في المدينة لمحاكمته .. وهو يتذكر ايضا ان التهمة التي وجهت اليه اثناء المحاكمة لم تكن الامتناع عن قراءة التعليمات ، وانما التسيب في قتل مائة وسبعين مسافرا مع طاقم الطائرة التي كان يعتزم السفر على متنها . وبرغم انه لم يكن يدري كيف كان هو السبب في مقتل كل اولئك الناس ، خاصة وان جميع المسافرين من طاقم الطائرة كانوا احياء حينما انزل من الطائرة قبل اقلعها ، الا ان الحاكم اصر على ذلك مستخلصا من وقائع سقوط الطائرة ، انه هو المسؤول الاول عن مقتلهم جميعا ! اما كيف توصل الى هذه النتيجة ، فببساطة وفقا للمعادلة التالية :

بما ان المسافرين قتلوا جميعا فان هذا يعني انهم لم يقرأوا تعليمات النجاة ، اذ انهم لو كانوا قد قرأوا التعليمات ، لاستطاعوا النجاة حتى وان كانت الطائرة قد سقطت . وبما انه المسافر الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من ركاب الطائرة ، وحيث انه كان الوحيد الذي امتنع عن قراءة التعليمات ، فاذن ، لا بد ان يكون الآخرون قد اقتفوا اثره وامتنعوا عن القراءة . وعليه فانه كان السبب في مقتلهم جميعا .

عبثا حاول ان يقنع الحاكم بانه لم يكن السبب ، وانه شاهد جميع المسافرين وهم يقرأون التعليمات باهتمام كبير . وبالرغم من انه اقسم بشرفه امام الحاكم بانه بريء ، الا ان الحاكم لم يستطع الاقتناع بذلك ، اذ انه الطريق الوحيد الباقي من اطراف القضية . وحيث انه لا يوجد شاهد واحد يؤيد اقواله ، فقد اصدر عليه حكمه بالموت شنقا . انه حتى هذه اللحظة يعرف انه بريء تماما ولكنه لا يدري ان كانت تلك اطول ليلة ام اقصر ليلة في حياته حين كان . بعد ان اخذ ظلامها يتواري وراء الافق - يقف وجها لوجه امام مدير السجن .. لقد جاءه حارسان ثقيلان من حراس السجن ، وفتحا باب الزنزانة التي كانت تثن انينا يوجع القلب بسبب الرطوبة .. وها هو مدير السجن يطلب اليه الان ان يعلن عن رغبته الاخيرة ..

لقد كان دوما يكره صرير الاسواب التي تسبب الرطوبة ، كما كان يكره قطرات الماء المتساقطة من حنفية ماء بشكل رتيب وباقاع زمني متعادل . وكان يكره ايضا دخان السكاكر الكثيف الذي يذكره باجواء بوهيمية هامشية بليدة . وخلال تلك الليلة كان يحاول عبثا

لم يكن يعرف تماما ما اذا كانت تلك الليلة اطول ليلة عاشها ام اقصرها جميعا . لقد بدت طويلة تماما بكل لسعات الجدران السموية السوداء ... ولكن خيل له في نفس الوقت انها كانت قصيرة الى حد تلاشت معه كليا من مسار الزمن ولم يعد هناك شيء يفصل ما بين الموت والحياة . خلال تلك الليلة ومضت في مخيلته ذكريات احداث كانت علامات على طريق حياته . ولا يدري لماذا في زحام كل الاحداث الهامة التي تذكرها ، انتفضت في ذهنه حكاية مرعبة منسية حكها له جدته حين كان طفلا . قالت الجدة :

((كانت الحرب قد التهمت كل شيء .. الناس كانوا يموتون عشرات عشرات في كل مكان .. وبعضهم كان يموت جوعا .. وكان جاسم القصاب ، حين يجيء الليل ، يجمع بعض جثث الموتى .. وفي البيت كانت زوجته تساعده في سلخ الجلد وتقطيع اللحم .. لحم الموتى .. لينقل قبل شروق الشمس الى دكان القصاب .. حيث يباع على الجياع . وحين افتضح الامر ، حكم عليه بالاعدام شنقا هو وزوجته .. وفي صباح احد الايام نفذ فيهما الحكم شنقا حتى الموت بمشقة عتيقة كانت تبعث صريرا موحشا وهي تعصر الحياة من جسديهما .))

لا يدري ما اذا كان الخيط الذي يصل ما بينه وبين جاسم القصاب - الذي اعدم ابان الحرب العالمية الاولى - الشنق حتى الموت ، هو الذي اعاد لذهنه تلك الحادثة البشعة . ولكن حتى وان كان بينهما ذلك الخيط ، فانه لم يرتكب اية جريمة تبرر انهاء حياته على مشقة قد تكون عتيقة وتبعث صريرا موحشا .

انه يتذكر جيدا انه كان فرحا مثل طفل صغير لان تلك ، كانت المرة الاولى التي يسافر فيها بالطائرة . سيصعد الى حيث تلتهم النجوم ليلا . وراودته رغبة طفولية .. سيمد يده من الطائرة ويمسك بنجمة او اثنتين .. وسيرى الارض لأول مرة من السماء .. ويتذكر ايضا المضيئة الجميلة جدا وهي ترجو جميع المسافرين ان ينفلخوا شروط المقدم المبرم بينهم وبين الشركة والذي ينص على وجوب قراءة التعليمات بامعان .. ويتذكر ايضا كيف اخرج جميع المسافرين من جيوب مساند المقاعد التي تواجههم كرايس فيها تعليمات النجاة .. ثم يتذكر نقاشه مع المضيئة الجميلة حين سألته لم لا يقرأ التعليمات : ((التعليمات ! ولكن كلنا سنموت لو سقطت الطائرة ، قرأنا التعليمات ام لم نقرأها .. اني افضل الاستمتاع بالطبيعة الجميلة .)) وهو يتذكر كذلك كيف

التخلص من ذلك السؤال : كيف تحمل جاسم القصاب وزوجته صرير المشنقة العتيقة حين التف حول حبلها حول عنقيهما ؟ لا بد انهما كانا بظلمة ! اما هو .. فانه سيحزن بالتأكيد اذا ما كتب عليه ان يكون اخر صوت يسمعه ، صرير المشنقة !

- اجل .. اجل يا سيدي .. انني لا اتحمل صرير الاسباب العتيقة والمشائق .. وكذلك فطرات الماء التي تقطر من حنفيه ماء بشكل رتيب . ان رغبتني الاخيرة يا سيدي .. ان تصنع لي مشنقة جديدة لا تبعث انينا حين يعلق بها انسان يجب ان يموت بحكم القانون .

- ولكن هذا طلب غير معقول .. ثم من قال ان مشنقتنا تصدر صوتا مزعجا ؟

لم يكن السجن يعرف ما اذا كانت كذلك ام لا . وحتى الجلاد حين استدعي لبدء الرأي ، لم يستطع ان يقدم رأيا قاطعا . فالمسألة تعتمد على وزن السجن والظروف المناخية . واهيانا لا تعتمد على اي شيء .

لكن السجن كان مصرا :

- ان المشائق القديمة تصدر اصواتا مزعجة . وبما ان هذه المشنقة ليست جديدة ، فلا بد ان تكون قديمة . وقد تبعث صريرا موحشا . فاذا ما صنعت مشنقة جديدة فان ذلك سيؤكد انني استطيع ان اموت بهدوء .. هذه رغبتني الاخيرة !

بقي مدير السجن يفكر لحظات طويلة قبل ان يامر الحارسين باعادة السجن الى نزلاته .. ريثما يتدبر الامر .

ان رغبات المحكومين بالاعدام يجب ان تحترم . وهذا امر سار عليه السجن منذ ان انتج قبل نصف قرن . ولكن المدير لا يتذكر ان احدا من الذين نفذ فيهم حكم الاعدام حتى الان ، طلب رغبة غير معقولة . فماذا سيعمل ؟ واذا رفض تلبية الرغبة الاخيرة لهذا السجن ، وامر بتنفيذ الحكم فماذا سيفعل عنه .. بيروقراطي متصلب يرفض رغبة انسان سيهوت ! وانه يسيء الى سمعة السجن ، وقد يؤدي هذا الى فصله من العمل . وفي هذه الحالة ماذا يمكن ان يفعل .. ان من الافضل اذن .. ان يطلب الى شعبة المراسلات ان تعد كتابا حول استحصال موافقة المديرية العامة ، لصنع مشنقة جديدة نظرا الى ان المشنقة الحالية قد تصدر ، كما يخيل للسجين ، صريرا مزعجا يحرم السجناء المحكومين بالاعدام من الموت بهدوء .

وهكذا كان .. فقد اعد كتاب رسمي مستعجل جدا بهذا المعنى ووضع على مكتب المدير ليوقع عليه ، فيما كان هو يتبادل الحديث مع عدد من الباحثين الاجتماعيين الذين كانوا يقومون بزيارة السجن للدراسة اوضاعه وحالة السجناء والمعاملة التي يلقونها . وكان يشعر بكبرياء حقيقية وفخر كبير حين شرع يتحدثهم كيف ان السجن يحرض على تنفيذ رغبات السجناء ومنها الحالة الاخيرة .. وشعر باعتزاز اكبر حين وقع الكتاب امامهم ، ووضعه في سلة الصادرة ، كي ياخذ صبيحة اليوم اللاحق طريقه الروتيني الى المديرية العامة . ولم يكن يخطر بباله وهو يوقع الكتاب ان مشكلة عسيرة الحل كانت في طريقها الى غرفته . فقد عاد احد الحارسين الثقيلين ليبلغ المدير ان وحدة المطبخ قد اعتبرت ان الحكم قد نفذ في السجن ، وعليه فانها تمتنع عن تقديم اي طعام له . وفيما كان يعمل فكره بحثا عن حل لهذه المشكلة .. اذا بمشكلة اخرى تفرغ الباب . فقد جاء مسؤول من وحدة الفسيل شاكيا من ان الحارسين لم يقدموا حتى اللحظة الملابس التي كان يرتديها السجن قبل تنفيذ الحكم فيه كي تفسل وتهدأ لسجين اخر .

انه يستطيع ان يفتح المديرية العامة في موضوع الرغبة الاخيرة

للسجين ، وهو بالفعل قد شرع بذلك .. ولكن كيف يستطيع ان يقنع المشرفين على المطبخ ووحدة الفسيل بان السجن ما زال حيا وانه لم يموت ! وحتى اذا رأى المشرفون السجناء بامهات عيونهم ، فذلك لمن يحل المشكلة . فالمطبخ يتلقى التعيينات الغذائية طبقا لعدد السجناء ، ولا يستطيع ان يتحرك خارج نطاق تلك التعيينات . اما وحدة الفسيل فينبغي ان تستلم ملابس السجناء فوراً بعد تنفيذ الحكم . وحيث ان الموعد المقرر لاعدام السجن كان فجر ذلك اليوم وحيث ان النهار اقترب من منتصفه ، وحيث ان المطبخ لم يستلم تعيينات السجن ، وحيث ان وحدة الفسيل لم تستلم ملابس السجن ، فان الامر لا بد ان يعالج بصورة عاجلة .

كان ينبغي ان يفكر بسرعة ويقدر بسرعة ، خاصة وانه يحتل منصب مدير ولا يمكن باي حال ان يسمح بان تنكسر هيئته امام ضيوفه ، الباحثين الاجتماعيين ، الذين يجب ان يظهر امامهم حصافة في الرأي وحزما في اتخاذ القرارات . كان يلحن في سره اللحظة التي فكر فيها سجنه ، حينما كان حرا ، بالسفر جوا . انهم هكذا شباب هذا العصر يحاولون ان يصفطوا الزمن الى ابعد مدى ممكن ، دون ان يفكروا ماذا سيفعلون بالزمن الفائض . يسافرون بالطائرة بدلا من القطار او السيارة .. انه زمن عجيب ! ولم تطل به تلك التهويمات الفلسفية .. فقد كان يتذكر جيدا ان مبعوثي وحدتي الفسيل والمطبخ كانا ما يزالان في انتظار ما سيقور .

انه لم يكن يتمتع باي ذكاء خاص . وحين اجري له اختبار ذكاء في المدرسة قبل خمسة وثلاثين عاما ، كان (ابي . كيو) اي حاصل ذكائه ، كما ابلغوه ، دون المتوسط بكثير . وكان رأسه يحتفظ بذاكرة تتجاوز في ردايتها اية ذاكرة سيئة اعتياديا .. ولكن المآزق تفلح احيانا في ان تجعل من الالبياء او اشباههم ، اناسا يفكرون بسرعة . كما ان الصدق احيانا تلعب دورا في انجاب لحظات تبدو وكأنها مليئة بالذكاء او الحصافة . فقد تذكر بشكل غريب انه كان قد جلب معه ذلك الصباح بيجامته العتيقة ، التي ما انفك يضعها على جلده كل ليلة منذ خمسة عشر عاما ، دون ان يكل منها او تكل منه . ولم يفكر في ايما يوم من الايام في الانفصال عنها ، برغم انها قد اصيبت في اكثر من موضع ، بشقوق مستطيلة ومستعرضة ومنحرفة .. وبالرغم من انه كان يحس في ليالي الشتاء بصورة خاصة ، ان هواء باردا كان يتسلل عبر تلك الشقوق ، حتى يلامس عظامه ، الا انه لم يخطر بباله مطلقا قبل ذلك اليوم ، ان يحاول خياطة تلك الشقوق . وربما كانت ضربة حظ نادرة هي التي حملته ذلك الصباح ، على التفكير بان يكلف احد السجناء الذين يتعلمون الخياطة في السجن ، بخياطة الشقوق المنتشرة في كل انحاء بيجامته المزينة . وفي لحظة نحس ، ولكي ينفذ هيئته امام الباحثين الاجتماعيين قرر انه لا بد ان يعبر البيجامة للسجين الذي ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه حتى يتم صنع مشنقة جديدة ، كي تحال ملابس السجن التي يرتديها الى وحدة الفسيل . كان قلبه يتمزق الما وهو يسحب بيجامته من درج حديدي ويسلمها الى مبعوث وحدة الفسيل ليوصلها بدوره الى السجن .

لقد حلت مشكلة .. وبقيت مشكلة الطعام . انه لا يستطيع بالتأكيد ان يجهز السجن بتعييناته الغذائية يوميا ، ولا بد من حل المشكلة مع مسؤولي المطبخ . ولم يكن في رأسه عبارة مناسبة اكثر من ان يقول لمبعوث المطبخ بانه سيبحث الموضوع فيما بعد مع المسؤولين . ولم ينس ان يؤكد ان المسألة بسيطة جدا . وبالفعل استطاع ، بعد ان غادر الباحثون الاجتماعيون السجن ، التوصل الى حل مع مسؤولي وحدة المطبخ .. تجيز السجن بنصف ما كان يحصل عليه سابقا من الوجبات الغذائية على ان تقتطع هذه الكمية من تعيينات بقية السجناء

بنسب متساوية ومحدودة جدا كي لا يشعر السجناء بالنقص اليومي الحاصل في غذائهم . وهكذا فيما سجلت وحدة الفسيل تسلمها ملابس السجنين في سجلاتها ، وهذا يعني ان الحكم قد نفذ فيه فعلا وانه انتقل الى عالم الاموات ، فقد بقي مسؤولو المطبخ يعتبرونه سرا حيا او نصف حي . وبالطبع فان الوصول الى هذه الصيغة قد تم مقابل وعد قاطع من المدير بان ترفيعات مسؤولي وحدة المطبخ ستتم في مواعيدها دون تأخير ، مضافا لذلك ، فنيئة من الويسكي ، سيقدمها لهم في ليلة العيد ، اي بعد ستة اشهر . وبرغم غرابة ان يكون المدير كريها لحد ان يتبرع بفتينة ويسكي لخدميه في وقت كادت تنساب من عينه دهسة خفية وهو يفارق بيجامة مهلهلة ، فان كرمه ذلك كان فقط لان قوانين تلك المدينة كانت تعتبر الرغبة الاخيرة للسجناء مسألة مقدسة ، وان تنفيذها كان يحمل وعودا شديدة الاغراء .

كان مدير السجن يشعر بسعادة كبيرة بعد النجاح الذي حققه في غمضة عين . ولكن قبل ان يحتوي كل تلك السعادة في اعماقه تذكر بعد ما يقارب الشهر انه لم يستلم اي رد على كتابه من المديرية العامة حول استحصال موافقة على صنع مشنقة جديدة . كان يشعر بشيء يشبه الضيق في صدره وهو يستفسر من مسؤول شعبة المراسلات عن الموضوع . غير ان ذلك الشيء الذي يشبه الضيق اخذ يتبدد بعد ان اعلمه المسؤول ان الكتاب قد ارسل صباح ذلك اليوم ، وانه يأسف لحصول هذا التأخير نظرا الى ان الموظف المسؤول عن وضع ارقام الكتب الصادرة كان مجازا ، وقد انتهت اجازته اليوم فقط .

كانت الايام تمر بتشاقل كبير . . لقد مضت ايام لا عد لها والسجنين يعيش حياة كثيرا ما كان يخامرهم الشك في انه كان يعياها فعلا . فمتذشرين ، وهو يقضي كل اوقاته ، ليلا ونهارا ، داخل بيجامة المدير المتهزئة . ويتناول وجبات طعام تقل احيانا حتى عن نصف ما كان يحصل عليه حين كان يعيش حياته علنا ، وبصورة رسمية داخل زنزانته الرطبة . اما الان ، وهو يعيش بصورة غير رسمية ، وحتى انه يعتبر ميتا بموجب سجل الفسيل وقائمة المطبخ ، ونصف حي غير مشروع بموجب الاتفاق الذي توصل اليه المدير ومسؤولو المطبخ - اما الان فان هذا النوع من الحياة ، او نصف حياة غير مشروعة وداخل بيجامة المدير المهلهلة ، اخذ يسبب له صراعا مرهقا . ففيما كان يحس بانه بريء من التهمة التي حكم عليه بسببها بالموت ، فان شعورا معتما كان يثبت في داخله وينمو كل يوم بانه قد غدا لصا يختلس الحياة في سجن عتيق . وذلك شيء لا يمكن تحمله . لا بسد ان يفتاح مدير السجن بالموضوع . وحين قال للمدير :

- ان هذا النوع من الحياة لا يمكن ان يماشى . . انه جحيم حقيقي بالنسبة لي ، وان صرير المشنقة اكثر رحمة منه . . حين قال ذلك لم يكن يتوقع ردا كرد المدير :

- اجل . . اجل يا عزيزي . انا ادرك ذلك تماما ، ولكننا حريصون جدا على تنفيذ رغبتك الاخيرة ، ونحن نتوقع استلام موافقة المديرية العامة بين يوم واخر . .

- حسنا . . قلت انكم حريصون على تنفيذ رغبتني الاخيرة . . ان رغبتني تلك قد احتلت الان المرتبة الثانية بعد رغبتني الحالية ، التي هي رغبتني الاخيرة الان . . ارجوك يا سيدي المدير . . بل اتوسل اليك ان تنفذوا في الحكم باية وسيلة ، حتى وان كان ذلك بواسطة المشنقة التي شنق بها جاسم القصاب وزوجته . هذه هي رغبتني الاخيرة . .

- ولكنك تعتبر الان ميتا يا عزيزي بموجب سجل وحدة الفسيل وقائمة المطبخ . ولا يمكن باي حال قبول رغبات اناس يعتبرون امواتا . ثم الا يساعدك ان تعيش اسبوعا اخر ؟ ان موافقة المديرية يتوقع ان تصل بين يوم واخر ، ولا يمكن ان يرفض الطلب ، نظرا الى ان المشنقة

الحالية قد تصدر صريرا مزعجا . ونظرا لحرصنا على راحة السجناء، فسنشرع بصنع المشنقة الجديدة فور استلام رد المديرية العامة . وستكون انت اول من سيدشنها . .

كان من العيث ان يحاول اقناع المدير بانه ما يزال حيا ، وانه منذ تلك الليلة اخذ يحس بالحياة بشكل كثير جدا لم يعهده من قبل ابدا . فكل شيء الان غير اعتيادي . فهو يعيش داخل بيجامة المدير المتهزئة . وهو يختلس كل لحظة من حياة لا يريدتها ولا تروق له . ويختلس ايضا طعام السجناء الاخرين . وفوق كل ذلك ، فهو محكوم بالاعدام بسبب جريمة لم يرتكها . ان كل شيء الان في حياته غير مشروع وغير اعتيادي . وحين يكون على الانسان ان يعيش وضعا كهذا ، فانه يواجه الحياة بدرجة اعلى من الاحساس والتركيز . هذا يعني انه يعيش الحياة بشكل مضاعف عدة مرات وان كان يعتبر ميتا بموجب سجل الفسيل وقائمة المطبخ . وعلى اي حال ، فإزاء وضع كهذا لا يمكنه ان يفعل اي شيء سوى ان يعيش حتى تاتي الموافقة .

لقد مضى شهر ثالث ورابع وسادس وها ان العيد يلوح في الافق حاملا الباهج للصفار وبعض الكبار . . ووعدا بفتينة ويسكي ، والسجنين والمدير ما زال ينتظران رد المديرية العامة . ولم يكتف المدير بالانتظار وانما بعث بعمد من كتب تؤكد الطلب السابق بلغ حجمها اكثر من ثلاثين كتابا حتى الان . وكان نشاطه في ارسال الكتب يزداد كلما اقترب العيد اكثر . اذ ان حلوله يعني ، اذا لم تصل الموافقة ، اتفاقا جديدا مع المطبخ . . وربما فتينة ويسكي اخرى ! الا ان الانتظار لم يطل به كثيرا . . فقبل حلول العيد ، وصل رد المديرية العامة :

نظرا الى ان سجلات وحدة الفسيل ووحدة المطبخ خلال الاشهر الستة الاخيرة لا تتضمن اسم السجنين ، فاننا نستطيع ان نستنتج من ذلك ان السجنين قد اعدم !

بغداد

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

آلان بيتون
نيكوس كازنتزاكي
البرتو مورافيا
البرتو مورافيا
غوستاف فلوبيير
موريس ويست
أريك سيفال
بيار دوشين
البير كامو
ماريو بوزو
فاسكو براتوليني
هنري باربوس
لوركا
مارغريت دورا
جان بول سارتر
« «
» »
» »
» »

ابك يابلدي الحبيب
زوربا
انا وهو
الانتباه
مدام بوفاري
السير
قصة حب
الموت حيا
الموت السعيد
العراب
الشوارع العارية
الجحيم
ماريانا
هيروشيميا حبيبي
نساء طراودة
تمت اللعبة
مسرحيات سارتر
الفثيان
دروب الحربة ٣/١